تطريز

الرسالة المغنية في السكوت ولزوم البيوت

تصنيف العلامة

الحسن بن أحمد بن عبد الله ابن البناء البغدادي

المتوفى سنة (٤٧١) رحمه الله تعالى



منقول من التسجيل الصوتي للشيخ الدكتور

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الأولى




بَرْنَامَجُ الدَّرْسِ الوَاحِدِ

السَّنَةُ الثَّامِنَةُ ١٤٣٠

الكِتَابُ التَّاسِعَ عَشَرَ

تَطْرِيزُ

الرِّسَالَةِ المُغْنِيَةِ فِي السُّكُوتِ وَلُزُومِ البُيُوتِ







تطريز

الرسالة المغنية في السكوت ولزوم البيوت

تصنيف العلامة

الحسن بن أحمد بن عبد الله ابن البناء البغدادي

المتوفى سنة (٤٧١) رحمه الله تعالى

منقول من التسجيل الصوتي للشيخ الدكتور

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين




النسخة الأولى





للإعلام بالأخطاء الطِّباعية والاستدراكات والاقتراحات؛

يُرجىٰ المراسلة علىٰ البريد التالي: Abdellahdj24@gmail.com








الحمـد لله ربِّنـا، وأشـهد ألَّا إلـه إلا الله وحـدَه لا شـريك لـه، وأشـهد أنَّ محمَّـدًا عبـده ورسوله.

أمَّا بعدُ:

فهـذا هـو (**الـدَّرس التَّاسـع عشـر**) مـن (**برنـامج الـدَّرس الواحـد الثَّـامن**)، والكتـاب المقروء فيه هو «**الرِّسالة المُغْنِية في السُّكوت ولُزوم البيـوت**»، للحـافظ أبـي علـيٍّ ابـن البَنَّاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

وقبل الشُّروع في إقرائه لا بُدَّ مِن ذِكْر مُقدِّمتين اثنتين:











وتنتظمُ فِي ثلاثة مقاصدَ:

- **المقصد الأوَّل: جَرُّ نَسَبِه:**

هو العَلَّامة الحافظ المُتقِن الحَسَن بنُ أحمدَ بنِ عبد الله البغداديُّ المُقرِئ، يُكْنَى بـ (أبي عليٍّ)، ويُعرَف بـ (ابن البَنَّاء): بإثباتِ الهَمْزِ آخرَه، ورُبَّما حُذِفَت فقيل: (ابن البَنَّا).

- **المقصد الثَّانِي: تاريخ مولده:**

وُلِد رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة سِتٍّ وتسعين وثلاثمائة (٣٩٦).

- **المقصد الثَّالث: تاريخ وفاته:**

تُوفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليلة السَّبت الخامس مِن شهر رجبٍ، سنة إحدىٰ وسبعين وأربعمائة (٤٧١)، ولَهُ من العُمر خَمْسٌ وسبعون سنةً؛ فَرَحِمه الله رحمةً واسعةً.









المُقَدِّمَةُ الثَّانيةُ: التَّعْرِيفُ بِالمُصَنِّفِ

وتنتظم في ثلاثة مقاصدَ أيضًا:

- **المقصد الأوَّل: تحقيق عنوانِه:**

اسم هذا الكتاب: «الرِّسالة المُغْنِية في السُّكوت ولُزوم البيوت»؛ **ويشهد على ذلك أَمْران اثنان:**

- **أوَّلهما**: النُّسخة الخَطِّيَّة المُعتمَدة في نَشْره؛ إِذْ حَمَلَتْ هذا الاسم.
- **والثَّاني**: ذِكْرُ جماعةٍ له بِهذا الاسم؛ كابن حَجرٍ، والرُّودَانِيِّ في كتاب «صِلة الخَلَف».

وزَاد الرُّودانِيُّ في تسميته: «النَّافع للإنسان في أُولاه وأُخراه، وسَلامةِ دِينه ودُنياه»؛ وهذه الجُملة مذكورةٌ في ديباجَة المُصَنِّف؛ مِمَّا يُقَوِّي ثُبوتَها ضمن الاسم.

- **المقصد الثَّانِي: بيانُ موضوعِه:**

موضوع هذه الرِّسالة: بيان فضيلة الإمساكِ عن فُضولِ الكلام والمُخالطة.

- **المقصد الثَّالث: توضيحُ منهجه:**

هذه الرِّسالة من الذَّخائر المَنْسُوجة على طريقة أهل الحديث بالرِّواية المُسنَدة، وعَقَدَ فيها المُصَنِّف تراجمَ لبيانِ مقصوده مِن مَروِيَّاته، وزَيَّنَها بتُحَفٍ طِرافٍ من الأشعار والآثار.







قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينْ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينْ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِ المُرْسَلِينْ، مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ وَآلِهِ الطَّاهِرِينْ.

وبَعْدُ:

أَحْسَنَ اللهُ عَوْنَكَ وتَوْفِيقَكْ، وَصَوْنَكَ وَتحْقِيقَكْ؛ فَإِنَّكَ سَأَلْتَ تَعْجِيلَ رِسَالَةٍ تَنْفَعُكَ فِي أُولَاكَ وَأُخْرَاكْ، وَتَجْمَعُ لَكَ سَلَامَةَ دِينِك وَدُنْيَاكْ؛ فَأَتَيْتُ بِهَا مُخْتَصَرَةً يُسْتَدَلُّ بِأَبْوَابِهَا عَلَى مَفْهُومِ خِطَابِهَا، نَفَعَنَا اللهُ وإِيَّاكَ بِهَا، وَجَمِيعَ المُسْلِمِينَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ نَجَاةِ الإِنْسَانِ بِالصَّمْتِ وَحِفْظِ اللِّسَانِ

١ - حَدَّثَنَا أَبُو الفَتْحِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الفَوَارِسِ الحَافِظُ - إِمْلَاءً -، أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الحَسَنِ الصَّوَّافُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنِي أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ عِيسَى، حَدَّثَنِي ابْنُ لَهِيعَةَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحُبُلِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ صَمَتَ نَجَا**».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ:

هذا الحَديث إسناده ضعيفٌ، لكن رَواه ابن شَاهِين في كتاب «التَّرغيب» مِن حديث عمرِو بن الحَارثِ وابنِ لَهِيعةَ عن يزيدَ به، وعَمْرُو بن الحَارث أحدُ الثِّقات؛ فَصَحَّ هذا الحديث بمُتابعة عمرٍو لابن لَهِيعةَ الَّتي أَخْرَجها ابن شاهين في كتاب «التَّرغيب».

ومعنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: («**مَنْ صَمَتَ نَجَا**»): أي مَنْ أَمْسَكَ عَمَّا لا يُحتَاج إليه من الكلام نَجَا.

والمُراد بـ (النَّجاة) حيثُ أُطلِقت في عُرْف الشَّرع: النَّجاة مِن عذاب النَّار. فإِنَّ حقيقة الفَلاح مَرْهُونةٌ بِها.

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢- حَدَّثَنَا أَبُو الحُسَيْنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ بِشْرَانَ السُّكَّرِيُّ المُعَدَّلُ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ، قَالَ: حَدَّثَنَا الرَّمَادِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**».

قَال الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

هذا الحديث مُخَرَّجٌ في «الصَّحيحين»، وهو قطعةٌ من حديثٍ أطولَ من هذا السِّياق.

وفيه: بيانُ أَنَّ مِن علاماتِ الإيمان: قَوْل الخير أو الصَّمت.

والعَبْد في مَنْطقِه مَقْسُومٌ على ثلاثة أحوالٍ:

- **أَوَّلُها**: أَنْ يقول خيرًا.
- **وثَانيها**: أَنْ يقول شَرًّا.
- **وثالثها**: أَنْ يَصمُتَ فلا يَنْطِقُ بشيءٍ.

والَّذي جَعَلَتْه الشَّريعة دليلًا على الإيمان وعلامةً من علاماته: أَنْ يقول المَرء الخيرَ، فإِنْ لم يَقُل الخيرَ فإِنَّه يُمسِك عن الكلام.

وَعُلِم به أَنَّ ما لم يُذْكَر من هذه الأحوال الثَّلاثة خلافُ الإيمان؛ فالكلام بالشَّرِّ خلافُ الإيمان، والوَلَعُ بذلك علامةٌ على ضَعْف إيمان صاحبه.

وكُلَّما ساء مَنْطِق العبد كُلَّما ساء حَظُّه مِن رَبِّه عَزَّوَجَلَّ، وضَعُفَت رُتْبَتُه عند الله عَزَّوَجَلَّ.

ومِمَّا يَدُلُّ على هذا: ما في «الصَّحيح» أَنَّ النَّبيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ، وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ**»؛ فَإِنَّ هؤلاء لَمَّا سَاء مَنْطِقُهم بِلَفْظٍ قَبيحٍ - وَهُو اللَّعن - كان الجزاءَ حِرمانُهم من الشَّهادةِ والشَّفاعة.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

٣- أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ الجَبَّارِ السُّكَّرِيُّ، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبَّاسٌ الدُّورِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ**».

٤- أَخْبَرَنَا أَبُو الفَضْلِ عَبْدُ الوَاحِدِ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ الحَارِثِ التَّمِيمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَلْمَانَ الفَقِيهُ النَّجَّادُ، قَالَ: حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: حَدَّثَنَا زَائِدَةُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ حَيَّانَ، عَنْ عَنْبَسِ بْنِ عُقْبَةَ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، مَا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحْوَجُ إِلَى طُولِ سَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا الأَثَرُ المَشهور عن عبد اللهِ بن مسعودٍ أَثَرٌ صحيحٌ.

وفيه: بيانُ خطَرِ اللِّسان، وشِدَّةِ شَرِّه؛ حَتَّى أَنَّه أَحَقُّ بِالحَبْس المَدِيد مِن كُلِّ شَيْءٍ على وَجْه الأرض.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

٥- أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ رَزْقَوَيْهِ البَزَّازُ، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنْصُورٍ الرَّمَادِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الزُّبَيْرِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَبْدِ اللهِ النَّخَعِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرٍو الشَّيْبَانِيُّ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَنُؤَاخَذُ بِكُلِّ مَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ابْنَ جَبَلٍ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!**».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا الحَديث بِهذا السِّياق إسنادُه صحيحٌ، وقد أَخْرَجه بِهذا الإسناد واللَّفظِ الطَّبرانِيُّ في «الكبير».

وهو قطعةٌ مِن حديث معاذِ بن جبلٍ الطَّويلِ عند التِّرمذيِّ وابن ماجهْ، إِلَّا أَنَّ السِّياقَ الطَّويلَ لا تَخْلُو أسانيدُه من ضَعْفٍ.

نعم؛ يحصل بمجموعها تحسينُه، لكن هذه الجُملة هي أَصَحُّ ما رُوِي في حديث معاذٍ الطَّويلِ، وهو أحد الأحاديث التي ذَكَرها النَّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في «الأربعين النَّوويَّة»؛ وهي الأربعين الَّتي جَعَلها في جَوامع الأحاديث.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: («**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ابْنَ جَبَلٍ**») أي فَقَدتْك؛ وهذا مِمَّا يَجْري على اللِّسان ولا يُراد به حقيقتُه، وإنَّما رَغِبَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تعظيمِ الأمرِ عليه لِيَقَرَّ في

قلبه، فَخَاطَبَه بمثلِ هذا.

ثُمَّ قال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: («**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!**»)؛ أي مِن أعظمِ ما يُدْخِل النَّاسَ النَّارَ ويُوجِبُ لهم الانْكِباب - أي الطَّرحَ - على المَناخر - **والمُراد بـ (المَناخر)**: الوَجْه؛ لأَنَّ المِنْخِرَ مَحَلُّه الوَجْهُ، وجاء ذلك في رِوايةٍ -: («**إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!**»)؛ أي إِلَّا ما تُنْتِجه ألسنَتُهم؛ جَعَلَ الكلامَ الصَّادرَ من الإنسان على لسانه بمنزلة الحَصيدة الَّتي يحصِدُها الزَّارع؛ فكما أَنَّ الزَّارعَ يَحْصِدُ زَرْعًا بمَا يبذُرُه وَيَسْقِيه؛ فكذلك الإنسان يَحْصُد ما يَحْصُد مِمَّا يَتكَلَّم به.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

٦- أَخْبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ عَبْدُ الغَفَّارِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ زَيْدٍ المُؤَدِّبُ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ ابْنُ الصَّوَّافِ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنَا حَسَنُ ابْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ وَيُونُسَ ابْنِ عُبَيْدٍ وَحُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**».

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

هذا الحديثُ لا يخلو إسنادُه مِن ضَعْفٍ، لكِنَّ الحديثَ مَرْوِيٌّ مِن وَجْهٍ آخرَ من حديثِ أنسٍ وغيرِه؛ فهو حديثٌ صحيحٌ مَرْوِيٌّ مِن حديثِ جماعةٍ مِن الصَّحابة.

وفيه: بيان أَنَّ حقيقة الإسلامِ منها أَنْ يَسْلَمَ المُسلمون مِن لسانِ المسلم ويدِه.

والأحاديثُ الَّتي يأتِي فيها قولُ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**المُسْلِمُ كَذَا وَكَذَا**» يُراد بِها: بيان حقيقة الإسلام؛ فَكُلُّ حديثٍ جاء فيه ذِكْر خَصْلَةٍ من خِصال المسلم فالمُراد بذلك بيان حقيقة الإسلام.

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مثلًا هنا -: («**المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**») معناه أَنَّ مِن حقيقة الإسلام: أَنْ تَسْلَمَ أعراضُ المسلمين بينَهم.

وكقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في «الصَّحيح»: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ**»؛ فمعناه: أَنَّ مِن حقيقة

الإسلام: عَقْد الأُخُوَّة الإيمانِيَّة عليه.

وَاطْرُد هذه القاعدةَ في كُلِّ حديثٍ من الأحاديث المنقولة عن النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذا؛ وهي حقيقةٌ بالإفراد؛ لِمَا فيها مِن بيان حقيقة الإسلام؛ فَإِنَّه بِجَمْع النَّظير إلى النَّظير في مثل هذه الأحاديث تَظْهرُ حقيقة الإسلام الَّذي ينبغي أَنْ يَتَعَبَّد المَرْء رَبَّه به.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

٧- أَخْبَرَنَا أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ السِّمْسَارُ الحُرْفِيُّ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَلْمَانَ النَّجَّادُ، أَخْبَرَنَا هِلَالُ بْنُ العَلَاءِ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ، حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ أَعْيَنَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ فُقْمَيْهِ وَرِجْلَيْهِ دَخَلَ الجَنَّةَ**».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا الحديثُ الَّذي ذَكَره المصنِّف في إسناده ضَعْفٌ، لكنَّه رُوِي مِن حديث جماعةٍ من الصَّحابة في «الصَّحيحين» وغيرهما؛ كحديث سَهْل بن سعدٍ.

والمُراد بـ (الفُقْمَيْن): الفَكَّان؛ كما جاء في بعض ألفاظ الحديث: «**مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ فَكَّيْه ورِجْلَيْه دَخَلَ الجَنَّةَ**»؛ والمُراد بذلك: اللِّسانُ والفَرْج.

فقَدْ تَكفَّل النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ حَفِظَ لسانَه وفَرْجه أَنْ يدخلَ الجَنَّة.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

٨- أَخْبَرَنَا أَبُو مَنْصُورٍ مُحَمَّدُ بْنُ رَامِشٍ - قَدِمَ عَلَيْنَا الحَجَّ -، أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ شَيْبَانَ المُعَدَّلُ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ: «مَرُّوا بِرَاهِبٍ فَنَادَوْهُ فَلَمْ يُجِبْهُمْ، ثُمَّ عَادُوا فَنَادَوْهُ فَلَمْ يُجِبْهُمْ، فَقَالُوا لَهُ: لِمَ لَا تُكَلِّمُنَا؟! فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ؛ إِنَّ لِسَانِي سَبُعٌ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ أُرْسِلَهُ فَيَأْكُلَنِي».

٩ - وَأَنْشَدُونَا فِي مَعْنَاهُ:

احْفَظْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ ... لَا يَقْتُلَنَّكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ

كَمْ فِي الْمَقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لِسَانِهِ ... كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الْفُرْسَانُ

١٠ - أَنْشَدَنَا أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ المُظَفَّرِ بْنِ بَدْرٍ الشَّافِعِيُّ البَنْدَنِيجِيُّ بِهَا، أَنْشَدَنَا أَبُو النُّعْمَانِ عَبْدُ الأَعْلَى بْنُ أَحْمَدَ النَّجْلِيُّ، أَنْشَدَنَا الحُسَيْنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ بِسْطَامٍ لِأَبِي نُوَاسٍ:

خَلِّ جَنْبَيْكَ لِرَامِ ... وَامْضِ عَنْهُ بِسَلَامِ

مُتْ بِدَاءِ الصَّمْتِ خَيْرٌ ... لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ

رُبَّمَا اسْتُفْتِحَ بِالْقَوْ ... لِ مَغَالِيقُ الْحِمَامِ

رُبَّ قَوْلٍ سَاقَ آجَا ... لَ قِيَامٍ وَفِئَامِ

إِنَّمَا السَّالِمُ مَنْ أَلْـ ... ـجَمَ فَاهُ بِلِجَامِ

١١ - وَأَنْشَدَنَا أَيْضًا:

أَنْتَ مِنَ[1] الصَّمْتِ آمِنُ الزَّلَلِ ... وَمِنْ كَثِيرِ الْكَلَامِ فِي وَجَلِ
لَا تَقُلِ الْقَوْلَ ثُمَّ تُتْبِعُهُ: ... يَا لَيْتَ مَا كُنْتُ قُلْتُ لَمْ أَقُلِ

١٢ - وَأُنْشِدْنَا أَيْضًا:

اسْتُرِ الْعِيَّ مَا اسْتَطَعْتَ بِصَمْتٍ ... إِنَّ فِي الصَّمْتِ رَاحَةً لِلصَّمُوتِ
وَاجْعَلِ الصَّمْتَ إِنْ عَيِيتَ جَوَابًا ... رُبَّ قَوْلٍ جَوَابُهُ فِي السُّكُوتِ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قوله: (اسْتُرِ الْعِيَّ): **العِيُّ**: العَجْز عن البيان.

وقوله في آخره: (رُبَّ قَوْلٍ جَوَابُهُ فِي السُّكُوتِ)، قال الأعمشُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «السُّكُوت جوابٌ».

فمِمَّا يُجابُ به بعض المُتكلِّمين: السُّكوت عن كلامِهم الَّذي يذكرُونَه، سواءً سؤالًا أو غيرَ ذلك.



(١) لعلَّها: (أَنْتَ مَعَ الصَّمْتِ آمِنُ الزَّلَلِ)، هذا أَظْهَرُ في المعنى.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٣- وَقَالَتِ الحُكَمَاءُ: (مَثَلُ الكَلِمَةِ كَالسَّهْمِ لَا يُمْكِنُ رَدُّهُ).

وَإِنَّمَا جُعِلَ لِلْإِنْسَانِ لِسَانٌ وَاحِدٌ وَأُذُنَانِ حَتَّى يَكُونَ مَا يَسْمَعُ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَكَلَّمُ، وَهُوَ عَلَى رَدِّ مَا لَمْ يَقُلْ أَقْدَرُ مِنْهُ عَلَى رَدِّ مَا قَدْ قَالَ.

١٤- وَأُنْشِدْنَا أَيْضًا:

يَمُوتُ الْفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ ... وَلَيْسَ يَمُوتُ الْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ

فَعَثْرَتُهُ مِنْ فِيهِ تُذْهِبُ نَفْسَهُ ... وَعَثْرَتُهُ بِالرِّجْلِ تَبْرَى عَلَى مَهْلِ



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ السُّكُوتِ وَلُزُومِ البُيُوتِ

١٥- أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ دَاوُدَ الرَّزَّازُ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ الشَّافِعِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ زُهَيْرٍ الضَّبِّيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ ابْنُ المُبَارَكِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَيُّوبَ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زَحْرٍ، عَنِ القَاسِمِ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: «**امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا الحديثُ إسناده ضعيفٌ، لكِنْ له شواهدُ أُخرى مِن غير حديثِ عُقبةَ يثبت بِها.

وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: («**امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ**») هو بمعنى حديث عبد الله بن عمرٍو المُتَقَدِّم: («**مَنْ صَمَتَ نَجَا**»)؛ فإِنَّ السُّؤال هنا عن النَّجاة.

فكَأَنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: (اسْكُت فتَنْجُ)؛ لأَنَّ مِلْك الإنسان لسانَه يلزمُ منه أَنْ يكونَ صامتًا حاكمًا لِلِسَانه.

ومِنَ النَّاس مَنْ يحكمُه لِسانُه، فيَنفَرِطُ عليه ولا يستطيع أَنْ يَسُوسَه؛ فيتكلَّم ما شاء كيفما شاء، ولا يُفَرِّق بين ما ينبغي صدورُه في حالٍ وما ينبغي إمساكُه في حالٍ أخرى.

وسَبَقَ أَنْ ذكرتُ لكم ما كانَ أبو هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقوله: «حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وِعَاءَيْنِ: فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا البُلْعُومُ».

فأَمْسَكَ أبو هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن شيءٍ مِمَّا سَمِعه من النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لعِلمِه بأَنَّ ما ينشأ عن ذلك من الفتنةِ أعظمُ.

وليس مُراد أبي هريرةَ خوفَه من تبليغ ما سَمِع من النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولكن مُرادُه: أَنَّه لو حَدَّث به وَقعَت فتنةٌ أَدَّت إلى حدوث القَتل بين المسلمين.

وهذا الَّذي حَبَسه أبو هريرةَ - كما قال أهلُ العلم - إنَّما هو المُتَعلِّق بتعيين أسماء أهل الفِتَن ودُعاتِها في الصَّدر الأَوَّل، وما يَؤُول إليه حالُ النَّاس في المُلْك والوِلاية ونحو ذلك؛ مِمَّا لا يَترتَّب عليه عَملٌ.

وللشَّاطبيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى في مُقَدِّماتِ «المُوافقات» كلامٌ حَسَنٌ في معنى أَثَرِ أبي هريرةَ هذا.

وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد ذلك: («**وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ**»): عَبَّر بـ(السَّعة) عن الجُلوس في البيت؛ لأَنَّ طَبْعَ الإنسان إذا حَبَسَ نفسَه في بيتِه أَنْ يضيقَ عليه؛ فأَخْبَر النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّ لُزومَه لتحصيلِ النَّجاةِ يجعلُه واسعًا على الإنسانِ.

وإِنَّما يُوَسِّعُه عليه: اشتغالُه بما ينفعُه؛ فإِنَّ الإنسان إذا لَزِم بيتَه وأَقْبَلَ على ما ينفعُه صارَ البيتُ عليه واسعًا، وإذا كان فارغًا ضَاقَ عليه البيتُ ولو كان واسعًا.

ولذلك أَرْشَده النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى ما يشتغل به ليكون البيتُ عليه واسعًا فقال: («**وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**»)؛ فالبُكاء على الخطيئة وشُهودُها الحاملُ على الاستكثار من

الحَسنات يجعل الإنسانَ في لَذَّة مُناجاةٍ لِرَبِّه عَزَّوَجَلَّ؛ فمهما كان البيت عليه ضَيِّقًا في سَكَنه فهو واسعٌ عليه؛ لأَنَّه مُشتغِلٌ بما به راحةُ قلبه.

وهؤلاء الثَّلاثة - الَّتي أَرْشَد إليهنَّ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِهِنَّ جِمَاع النَّجاة؛ كما أَخْبَر النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأَنَّ السُّؤال وَقَعَ عن هذا؛ إذ قيل له: (مَا النَّجَاةُ؟) فقال: («امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»).

وتَتَأَكَّد هؤلاء الثَّلاثُ إذا كان في خُروجِ الإنسانِ خارجَ بيتِه حصولُ أَمْرٍ أَضَرَّ به في دينه؛ فبقاؤه في بيته وإمساكُ لسانِه واشتغالُه بخطيئته أَنْفَعُ له في دُنياه وأُخراه.

وكُلَّما كانَ الإنسان مُشتغِلًا بالأمورِ النَّافعة، حصلتْ له مَدارج النَّجاة هذه.

وإذا كان الإنسان فارغًا بَطَّالًا فَإِنَّه يُجَرُّ إلى الخُروج عن هؤلاء الثَّلاث، فضْلًا عن كونه مُشتغِلًا بما حَرَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنَّ حالَه في البُعْد عن النَّجاة أَشَدُّ وأَشَدُّ؛ **فالنَّاس في هذا الأمر أَحدُ ثلاثةٍ:**

أَوَّلهم: امرئٌ امتثَل هذا الحديث؛ ففازَ بالنَّجاة.

والثَّانِي: امرئٌ كان فارغًا من العمل بما فيه، لكِنَّه غير مُشتغِلٍ بالباطل؛ فهذا على شَفا هَلَكةٍ؛ لأَنَّ النَّفس إِنْ لم تُشْغِلها بالطَّاعة شَغَلَتْك بالمعصية.

ومِن حبائل الشَّيطان الَّتي يَكيد بِها للنُّفوس: تدريجها في الفراغ، والاشتغال بالمفضول عن الفاضل، حَتَّى يَجْتَرَّها إلى الوقوع فيما حَرَّم الله عَزَّوَجَلَّ.

والثَّالث: مَنِ اشتغَلَ بما حَرَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو أَبْعَدُ عن دَرْك هذه المَدارج.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

١٦- أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ الحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ شَاذَانَ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَمْرٍو عُثْمَانُ ابْنُ أَحْمَدَ بْنِ السَّمَّاكِ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الخَيَّاطُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ يَزِيدَ الصَّائِغُ، قَالَ: سَمِعْتُ الفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: «فِي آخِرِ الزَّمَانِ عَلَيْكُمْ بِالصَّوَامِعِ»، قُلْنَا: وَمَا الصَّوَامِعُ؟ قَالَ: «البُيُوتُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ يَنْجُو مِنْ شَرِّ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِلَّا صَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

١٧- وَكَانَ يَقُولُ: «لَيْسَ هَذَا زَمَانَ الكَلَامِ، هَذَا زَمَانُ السُّكُوتِ وَلُزُومِ البُيُوتِ».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا في زمانه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، فكيف في زماننا؟! لا رَيْب أَنَّ حاجة العبد إلى إمساك لسانِه والإقلالِ من الخُلْطة أَعْظَمُ وأَعْظَمُ.

فينبغي أَنْ يَنتبِهَ العبد إلى هذا الأمر؛ فإِنَّ مُخالطةَ النَّاس ينبغي أَنْ يقتصِر الإنسانُ فيها على المُهِّمات اللَّازمة الَّتي بِها قَوام مَعاشِه أو مَعادِه.

وما زاد عن ذلك فَإِنَّه يَتَقَلَّل منه؛ لئلَّا يتَضَرَّر بِهم في دينٍ أو دُنيا.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٨- وَقَالَ أَيْضًا: «لِيَكُنْ شُغْلُكَ فِي نَفْسِكَ وَلَا يَكُنْ شُغْلُكَ فِي غَيْرِكَ؛ فَمَنْ كَانَ شُغْلُهُ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ مُكِرَ بِهِ».

١٩- أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ المُعَدَّلُ، أَخْبَرَنَا أَبُو الحُسَيْنِ إِسْحَاقُ بْنُ أَحْمَدَ الكَاذِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدُ ابْنِ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ الأَغَرِّ، عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، قَالَ فِي «حِكْمَةِ آلِ دَاوُدَ»:

«حَقٌّ عَلَى العَاقِلِ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ: سَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا إِلَى إِخْوَانِهِ الَّذِينَ يُخْبِرُونَهُ بِعُيوبِ نَفْسِهِ، وَسَاعَةٌ يُخْلِي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهَا الَّتِي لَا قِوَامَ لَهُ إِلَّا بِهَا مِمَّا يَحِلُّ وَيَحْسُنُ؛ فَإِنَّ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَوْنًا لَهُ عَلَى السَّاعَاتِ الأُخَرِ.

وَحَقٌّ عَلَى العَاقِلِ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِزَمَانِهِ، حَافِظًا لِلِسَانِهِ، مُقْبِلًا عَلَى شَانِهِ.

وَحَقٌّ عَلَى العَاقِلِ أَنْ لَا يُرَى ظَاعِنًا إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: زَادٍ لِمَعَادٍ، أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ».

٢٠- أَخْبَرَنَا أَبُو الفَوَارِسِ الحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الفَوَارِسِ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ ابْنُ الصَّوَّافِ، حَدَّثَنا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنا أَبُو المُغِيرَةِ الحِمْصِيُّ، حَدَّثَنا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو، حَدَّثَنِي قَيْسُ بْنُ عَمْرٍو السَّكُونِيُّ، حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «إِنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا بَلَاءً وَفِتْنَةً، وَلَنْ يَزْدَادَ الأَمْرُ إِلَّا

شِدَّةً، وَلَنْ تَرَوْا مِنَ الأُمَرَاءِ إِلَّا غِلْظَةً، وَلَنْ تَرَوْا أَمْرًا يَهُولُكُمْ وَيَشْتَدُّ عَلَيْكُمْ إِلَّا حَقَرَهُ بَعْدُ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ».

قَالَ أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ رَضِّنَا» مَرَّتَيْنِ.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا الأَثَر إسناده صحيحٌ.

والجُملة الأُولى منه مَرْوِيَّةٌ من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رواه ابن ماجهْ بسندٍ صحيحٍ من حديث معاوية بن أبي سفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ**».

فهذه الدَّارُ مطبوعةٌ على البلاء والفِتنة ابتداءً؛ فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لم يخلُقْنا فيها إِلَّا لِيَبْتَلينا؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢**﴾ [الملك].

ثُمَّ وقعتِ البَلِيَّةُ ثانيةً بِبِعْثَتِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّما بُعِث ابتلاءً كما في «صحيح مسلمٍ» مِن حديث عِياضِ بن حِمارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ. وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**»؛ فكانَت بِعْثَتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأكيدًا لهذا الابتلاء.

وقد صرَّح بذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذْ قال في حديثِ معاويةَ السَّالِف: «**لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا**

إِلَّا بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ».

وإذا كان هذا هو حال الدُّنيا، فاللَّائق بِمَنْ قُذِفَ في دَارِ بلاءٍ وفِتنةٍ أَنْ يطلبَ لنفسِه النَّجاةَ، وأَنْ يعلمَ أَنَّ هذه الدَّارَ لا تخلُو مِن نَكَدٍ وتَقَلُّبِ حالٍ؛ فإنَّها مطبوعةٌ على ذلك؛ كما قال أبو الحَسَن التِّهاميُّ:

طُبِعَت عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا ... صَفْوًا مِنَ الْأَقْذَاءِ وَالْأَكْدَارِ

وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا ... مُتَلَمِّسٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

فينبغي أَنْ يعلمَ المرءُ أَنَّ هذا هو حالُ الدُّنيا؛ فَلْيَسِرْ فيها بِسيرةِ الصَّدْر الأَوَّل الَّذين أَنْجاهُم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مِن حَمْأَتِها.

وَلِعِظَم معنى هذا الأثر (قَالَ) الإمام (أَحْمَدُ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى لَمَّا حَدَّث به: («اللَّهُمَّ رَضِّنا، اللَّهُمَّ رَضِّنَا»)؛ لأَنَّ نفوسَ الخَلْق لا تشبع من الدُّنيا.

وأَكثر مُنازعة الخَلْق للأُمراء لأجلِ الدُّنيا؛ ولذلك قال معاذٌ: («وَلَنْ تَرَوْا مِنَ الأُمَرَاء إِلَّا غِلْظَةً، وَلَنْ تَرَوْا أَمْرًا يَهُولُكُمْ وَيَشْتَدُّ عَلَيْكُمْ إِلَّا حَقَرَهُ بَعْدُ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ»).

وهذا يحمِلُ العاقلَ على الرِّضا بمَا قَسَمَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأَنْ يُخَلِّصَ نفسَه من سَطْوتِها في طَلَبِ حَظِّها مِن الدُّنيا، ولْيَطلُبْ حَظَّه مِن الآخرة؛ فإنَّ العاقِلَ هو مَنْ يطلب النَّفيس الباقي ويَبِيع الرَّخيص الفَانِي، ولا أَرْخَصَ ولا أَفْنَى مِن الدُّنيا، ولا أَبْقَى ولا أَغلى من الآخرة.

ولَمَّا أَدرك السَّلفُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى هذا، شَمَّروا عن أيدِيهم في طاعةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ واجتهدُوا فيها؛ لأَنَّهم يعلَمُون أَنَّ الدُّنيا آيلةٌ إلى زَوالٍ، وأَنَّهم منها إلى ارتحالٍ.

وامتثلُوا قولَ عَليٍّ الَّذي عَلَّقه البخاريُّ في كتاب «الرِّقاق» وَوَصَلَه أبو نُعَيْمٍ الأصبهانِيُّ في «الحِلية» بسندٍ صحيحٍ؛ قال: «ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ».

ومَنْ رأى حال السَّلف وأَدْمَن مُطالعةَ أحوالِهم هَان عليه هذا الأمرُ.

ولأجل ذلك ذَكَر جماعةٌ من أهل المعرفةِ والإيمان - كأبي الفَرَج ابنِ الجَوزيِّ، وأبي عبد الله ابن القَيِّم - أَنَّ مِن الأسباب الَّتي تحصل بِها رِقَّة القلبِ، وتُهَوَّن بِها هذه الدُّنيا: إدمانُ مُطالعةِ أحوال السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، وقراءة قِصَصِهم وأخبارِهم.

فينبغي أَنْ يكون لطالِب العلم حَظٌّ مِن قراءة سِيَر أولئك، وأَنْ يُكثِر مِن ذلك، وفيهم عُظَمَاءُ، ذَكَر أبو الفَرَج ابن الجوزيِّ أنَّه أَفْرَدَهُم بالتَّصنيف؛ لِمَا في أخبارهم وأحوالهم ما يزيد الإيمان ويُرَسِّخ الإيقان، منهم: (الحسن البصريُّ، وأحمدُ ابن حنبلٍ، وسعيدُ بن المُسَيَّب) بعد أصحاب النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإِنَّ المَرء إذا رأى أحوالَهم وما هُم عليه مِن الكمالات؛ هَانتْ عليه هذه الدُّنيا، وحَرِص على التَّشَبُّه بِهم.

ومَنْ طَالَع مَنْ بعدَهم مِن أهل الإيمانِ والعَملِ، قَوِي قلبُه على ذلك؛ كَمَنْ يقرأُ سِيرة عبد الغنيِّ المَقدسيِّ الحَافظِ، وقد أَفْرَدَها الضِّياءُ في جُزْأَيْن، ونَقَلَ كثيرًا من كلامه الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «سِيَر أعلام النُّبلاء».

ومِمَّا يُؤْسَف له: أَنَّ كثيرًا من طَلَبَة العلم ينظرُ إلى مثل هذه المآخذ الإيمانيَّة بعينٍ لا

يَأْبَه بِها، فيرى أَنَّ القراءة في كُتب الرِّقاق والسِّيَر والحكايات والأخبار إِنَّما هي حَظُّ الدَّهْمَاء أو الجُهَّال أو عمومِ النَّاس أو المَنْسُوبين إلى طريقةِ ضلالٍ! وهذا من جَهْله بحقيقة الدِّيانة؛ فإِنَّ الفِقهَ في الدِّين أصلُه - كما ذَكَر ابن الجَوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتاب «المقاصد» - شاملٌ لهذا وغيره.

ومِن أعظم ما ينبغي أَنْ يَصُون الإنسانُ نفسَه فيهِ: حالُ قلبِه ونفسِه، وإذا أَهْمَلَ ذلك تَقَلَّبت عليه.

وأَخْطَرُ ما يكون التَّقَلُّب: إذا اشتغل الإنسان بسببٍ يُقَرِّبه إلى الله فكان سببًا في تبعيده عن الله؛ كمَنْ يعمَلُ الصَّالحات فيُرائي بِها؛ فإِنَّ عَمَلَه للصَّالحات على وجهِ المُراءاة آلَ به إلى تبعيدِه عن رَبِّه عَزَّوَجَلَّ.

ومِثْلُ ذلك: طالبُ العلم الَّذي يشتغل بتحصيل العلم، لكنَّه يقف مع صورتِه، ولا يكون العلم حاملًا له على التَّقرُّب إلى الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وهذا حالُ أكثرِ النَّاس؛ كما قال أبو الفَرَج ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «صَيْد الخاطر»: (رأيتُ أكثرَ العلماء يَتَشاغلون بصُورة العلمِ، فهَمُّ الفقيه: التَّدريس، وهمُّ الواعظ: الوعظُ.

فهذا يَرْعَى درسه فيفرَح بكثرةِ مَن يسمَعُه، ويقدَحُ في كلام مَن يخالِفُه، ويُمضي زمانَه في التَّفكُّر في المُناقَضَات، ليقْهرَ مَن يجَادِلُه، وعَينُه إلى التَّصدُّر والارتفاع في المجالس، وربَّما كانت همَّتُه جمعَ الحُطام ومخالَطةَ السَّلاطين!

والواعظ همَّتُه ما يُزَوِّقُ به كلامَه، ويُكثِّر جَمْعَه، ويجلِبُ به قلوبَ النَّاس إلى تعظيمِه،

فإن كان له نظيرٌ في شغلِه، أخذ يطعن فيه).

وقال في فصلٍ آخرَ: (رأيتُ أكثر العلماء مشتغِلين بصورة العلم دونَ فهم حقيقتِه ومقصودِه.

فالقارئُ مشغولٌ بالرِّوايات، عاكفٌ على الشَّواذِّ، يرى أنَّ المَقصود نفسُ التِّلاوة، ولا يتَلَمَّح عظمة المُتكلِّم، ولا زجرَ القرآن ووعدَه، وربَّما ظنَّ أنَّ حفظَ القرآن يدفَع عنُه، فتراه يَترخَّص في الذُّنوب، ولو فَهِم، لعلم أنَّ الحجَّةَ عليه أقوى ممَّن لم يقرأْ!

والمُحدِّث يجمعُ الطُّرقَ، ويحفظ الأسانيد، ولا يتأمَّل مقصودَ المَنْقُول، ويرى أنَّه قد حفظَ على النَّاس الأحاديثَ، فهو يَرْجُو بذلك السَّلامة، وربَّما تَرخَّص في الخَطَايا، ظنًّا منه أنَّ ما فعل في الشَّريعة يدفَع عنهُ!

والفقيهُ قد وقع له أنَّه بما قدْ عَرَف من الجدال، الَّذي يُقَوِّي به خصامَه، أو المسائل الَّتي قد عرف فيها المذهبَ: قد حصلَ بما يُفْتِي به النَّاسَ ما يرْفَع قَدْرَه، ويمحُو ذَنْبَه؛ فربَّما هجم على الخطايا، ظنًّا منه أنَّ ذلك يدفع عنه! وربَّما لم يحفظ القرآن، ولم يعرف الحديثِ، وأنَّهما ينهيان عن الفواحش بزَجرٍ ورفقٍ، ويَنْضَاف إليه - مع الجهل بِهما - حبُّ الرِّئاسة، وإيثارُ الغَلَبة في الجَدَل، فتَزِيدُ قسوةُ قلبِه!

وعلى هذا أكثر النَّاس، صُوَرُ العلم عندهم صناعة، فهي تُكْسِبُهم الكِبْرَ والحماقةَ).

وله أيضًا فصلٌ في «صَيْد الخاطر» يقول فيه: (تَأَمَّلتُ العلم والمَيلَ إليه والتَّشاغُل به، فإذا هو يُقَوِّي القلب قُوَّةً تمِيلُ به إلى نوعِ قَساوةٍ، ولولا قُوَّةُ القلب، وطولُ الأمل، لم يقعِ التَّشاغل به، فإنِّي أكتبُ الحديثَ أرجُو أن أرويه، وأبتدئ بالتَّصنيف أرجو أن أُتِمَّه، فإذا

تأمَّلتُ باب المعاملات قلَّ الأملُ، ورقَّ القلبُ، وجاءتِ الدُّموع، وطابَت المناجاة، وغَشِيتُ السَّكينةُ، وصرتُ كأنِّي في مقام المراقبة).

فأخبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أَنَّ العلم رُبَّما يُورِث طَالِبَه قساوةً إذا وَقَف مع صورتِه، ولم يكن ذلك العلمُ حاملًا له على العَمَل.

ثُمَّ قال بعد ذلك: (فالصَّواب العكوفُ على العلم، مع تَلْذِيع النَّفس بأسبابِ المُرقِّقات تَلْذِيعًا لا يَقْدَح في كمال التَّشاغل بالعلم). انتهى كلامه.

فينبغي أن يشتغل طالب العلمِ بتَرْقِيق نفسِه: بالقراءة في كُتب الرِّقاق، وزيارةِ الصَّالحين، وعيادةِ المرضى، وزيارةِ القُبورِ؛ فإِنَّ هذه المُرَقِّقات تُلَيِّنُ قَسوةَ قلبِه الَّتي تَعْتَريه بِسبب وقوفِ أكثرِ النَّاس مع صورةِ العلم.

وهذا حالُ النَّاس مِن قبلُ ومن بَعْدُ في العلم؛ فَهُم لا يَرَوْن مِن العلم إِلَّا مسائلَه. وأَمَّا حقائقُه وأَثَرُه في النُّفوس: فهذا قليلٌ.

حَتَّى آلَ الحالُ بالنَّاسِ إلى أن يقرأَ الإنسان في كُتب العقائدِ فيظُنُّها تُخاطِبُ عقلَه ولا تُخاطِب وِجْدَانه؛ فيَمُرُّ على عذاب القبْر، ويحفَظُ فيه خلافَ المُعتَزِلة، ونِسبةَ إنكار عذاب القبْر إلى بعض فِرَقهم لا إلى جميعهم، وغيرَ ذلك من المسائل، لكن لا يُثمِر ذلك في قلبِه شُهودَ هذا الأمرِ العَظيم!

فتكون دِراسَتُه لهذه العلومِ على وَجْهٍ يُقَسِّي قلبَه ولا يُلَيِّنُه.

ولو أَنَّ الإنسانَ كانت له بصيرةٌ، لرأى أَنَّ كُلَّ عِلْمٍ - آليٍّ أو أصلِيٍّ - يُرشِدُه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإِنَّ العلمَ ميراث النُّبوَّة، ونور العلم هو الهَادي إلى الصِّراط المستقيم، وكُلُّ قَبَسٍ من الأقباس المَنْصُوبة على ذلك الطَّريقِ هي هاديةٌ إلى مَزِيدٍ مِن النُّور.

ولو أَنَّ النَّاس تَعاطَوْا العلومَ بِهذه الطَّريقِ، لَأَثْمَرَ ذلك في قلوبِهم الخيرَ الكثيرَ؛ سواءً كان العلم الَّذي يتناولُه الإنسانُ ويتعاطَاه عِلْمًا أصليًّا، أو عِلْمًا آليًّا.

ومِن صَرْفِ القلوبِ عَمَّا ينفعُها: زُهْدُ كثيرٍ من طَلَبة العلم - كما سَلَف - في هذا الأمر، وعدمُ قيامِهم به، ولا رَفْعِ الرَّأس إليه.

وقد كان يُقرَأ في حِلَق العلم فيما سَلَف في البلاد النَّجدِيَّة - مثلًا - كتاب «الزُّهد» للإمام أحمدَ، وكان عامَّة الأشياخِ الكبارِ لا يقطعُون قراءتَه، فإِنَّهم إذا انتَهْوا منه قرأُوه مَرَّةً أخرى في حَلْقة الدَّرس، وهكذَا.

وأَمَّا طَلَبةُ العلم اليومَ: فإِنَّهم يَرَوْن أَنَّ كتابَ «الزُّهد» فيه كثيرٌ من الإسرائيليَّات والأحاديثِ الضِّعافِ والحكاياتِ المُنكرَةِ؛ فلا يُشْتَغَل به ولا يُضَيَّع الوقتُ في مثلِه!

والحقيقةُ: أَنَّ الضَّياعَ في مَقالَتِهم هذه الَّتي انْتَحَلُوها، وأخذُوها مِن رُؤُوسهم ولم يأخذوها من العلماء؛ فَزَهِدوا في مثل هذه الأشياء!

والمقصود مِن هذه الإلماعة: أَنْ يكون لكَ - يا طالبَ العلم - حَظٌّ مِن هذه المعانِي الَّتي تُرشِدُك وتَهْدِيك، وأَنَّكَ إذا خَلَوْتَ منها فإِنَّك على خَطَرٍ شديدٍ؛ فإِنَّ القرآنَ يهدي ناسًا يقودُهم إلى الجَنَّة فيكون لهم إمامًا، ويأخذُ به ناسٌ فَيَزُخُّ بأَقْفِيتهم إلى نار جهَنَّمَ.

وَمَنْ شَاهَدَ أحوال النَّاس عَرَف ذلك.

فينبغي أن يحذر طالب العلم أَنْ يكون حَظُّه من العلم اسمَه ورَسمَه، بل يكونُ حَظُّه

من العلم: حقيقتُه الإيمانيَّة، وهِدايته الرَّبانِيَّة، الَّتي تجعله يَأْنَس بالله عَزَّوَجَلَّ، ويَتَلَذَّذ بمُناجاته، ويرى أَنَّ حَبْسَ نفسِه في حِلَق التَّعليم قُرْبَةٌ يتَقَرَّب بِها إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فتزيدُه إيمانًا.

وليس المُراد مِن جلوسِه في حِلَق التَّعليمِ أَنْ يُحَصِّلَ هذه المعلوماتِ فيَتَقَدَّم بِها في منصبٍ دُنيوِيٍّ أو شهادةٍ أو رياسةٍ أو جاهٍ، أو يُزْجِيَ بِها وَقْتًا، أو يُجامِلُ بِها صاحبًا، أو يُرضِي بِها شيخًا أو صديقًا.

وإِنَّما المراد بِها: أَنَّه مُنتصِبٌ فيها مُتَقَرِّبٌ إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرزقنا البصيرةَ في دينِه.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢١- وَأَنْشَدَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَعْنَى هَذَا الحَدِيثِ:

عَجَبًا لِلزَّمَانِ فِي حَالَتَيْهِ وَلِأَمْرٍ دُفِعْتُ مِنْهُ إِلَيْهِ

رُبَّ يَوْمٍ بَكَيْتُ مِنْهُ فَلَمَّا صِرْتُ فِي غَيْرِهِ بَكَيْتُ عَلَيْهِ

٢٢- وَأَنْشَدَ أَيْضًا بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ مَعْنَاهُ:

إِذَا مَا الدَّهْرُ أَوْرَثَنِي انْتِقَاصًا حَنَوْتُ لَهُ غِمَاصًا لَا انْتِكَاصًا

وَقُلْتُ لَهُ نَعِمْنَا فِيكَ حِينًا وَهَذَا الْفِعْلُ مِنْكَ لَنَا قِصَاصًا

فَطَوْرًا شَاكِرًا مَا كَانَ مِنْهُ وَطَوْرًا صَابِرًا أَرْجُو الْخَلَاصَا

٢٣- وَاجْتَمَعَ أَرْبَعَةٌ مِنَ العُبَّادِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لِيَقُلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ فِي زَمَنِهِ شَيْئًا.

فَأَنْشَأَ الأَوَّلُ يَقُولُ:

إِنْ دَامَ ذَا الدَّهْرُ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى أَحَدٍ مِمَّنْ يَمُوتُ وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُودِ

وَأَنْشَأَ الثَّانِي يَقُولُ:

هَـذَا الزَّمَانُ الَّـذِي كُنَّا نُحَذَّرُهُ فِي قَوْلِ كَعْبٍ وَفِي قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودِ

وَأَنْشَأَ الثَّالِثُ يَقُولُ:

أَعْمَى أَصَمُّ مِنَ الْأَزْمَانِ مُلْتَبِسٌ وَفِيهِ لِلنَّفْسِ تَصْوِيبٌ بِتَصْعِيدِ

وَأَنْشَأَ الرَّابِعُ يَقُولُ:

فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ مَنْجَاةً وَمُدَّخَلًا لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَوْ فِي قَعْرِ مَلْحُودِ

٢٤- وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: (الزَّمَانُ لَا عَيْبَ لَهُ وَلَا ذَمَّ؛ لِأَنَّ اللهُ تَعَالَى يُصَرِّفُ أَقْدَارَهُ فِيهِ).

٢٥- وَأَنْشَدَ:

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبِ فِينَا ... وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا
وَقَدْ نَهْجُو الزَّمَانَ بِغَيْرِ جُرْمٍ ... وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ بِهِ هَجَانَا
دِيَانَتُنَا التَّخَادُعُ وَالتَّرَائِي ... فَنَحْنُ لَهُ نُخَادِعُ مَنْ يَرَانَا

٢٦- وَأَنْشَدَ أَيْضًا:

أَرَى حُلَلًا تُصَانُ عَلَى رِجَالٍ ... وَأَعْرَاضًا تُذَلُّ فَلَا تُصَانُ
يَقُولُونَ الزَّمَانُ بِهِ فَسَادٌ ... وَهُمْ فَسَدُوا وَمَا فَسَدَ الزَّمَانُ



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ مَا يَجِبُ عِنْدَ ظُهُورِ الفِتَنْ مِنْ طَلَبِ السَّلَامَةِ وَلُزُومِ الوَطَنِ

٢٧- أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الخَلَّالُ الحَافِظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ شَاهِينَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ البَغَوِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ ابْن عَبْدِ المَلِكِ بْنِ أَبِي الشَّوَارِبِ، حَدَّثَنا عَبْدُ الوَاحِدِ بْنُ زِيَادٍ، حَدَّثَنا عَاصِمٌ عَنْ أَبِي كَبْشَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ عَلَى المِنْبَرِ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُم فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي**»، قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «**كُونُوا أَحْلَاسَ بُيُوتِكُمْ**».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا الحديث إسنادُه لا بأسَ به، وهو حديثٌ حسنٌ.

وفيه: الإرشادُ إلى الفِتَنِ الَّتي تكون فيما يُستقبَل مِن عُمر هذه الأُمَّة؛ فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأصحابِه: («**إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ**») أي فيما تستقبلون («**فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ**»).

والمقصود بـ (جَعْلِها قِطَعًا): أَنَّه كُلَّما خُرِجَ مِن قطعةٍ مِن هذه الفِتَنِ دُخِل في فتنةٍ

أخرى.

وعظيم أَثَرُ هذه الفِتَن على النُّفوس: أَنْ تُصَيِّر الرَّجلَ يُصبح مؤمنًا ثُمَّ يُمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا ويُصبح كافرًا؛ مِمَّا يَدُلُّ على ظُلمَتِها وشِدَّة أَثَرها على القلوب.

ثُمَّ أَخبرَ عن حال النَّاس فيها مِن جهة الخَيْرِيَّة، فقال: («**القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي**»)، فالنَّاس فيها على طرائق قِددًا؛ وشَرُّهم: السُّعاةُ فيها، الدَّاعون إليها.

والواجب على الإنسان في مثل هذه الحال: الأَخذُ بما أَمَر به النَّبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال لَمَّا قالوا له: (فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «**كُونُوا أَحْلَاسَ بُيُوتِكُمْ**»).

و(**الحِلْس**): البُسُط الَّتي تُلْقَى في البيوت.

فكما أَنَّ هذه البُسُطَ تختَصُّ بالبيوت فلا تخرجُ منها، فينبغي أن يجعل الإنسانُ نفسَه حِلْس بيتِه لا يخرجُ منه؛ لأَنَّ تَرَشُّحَه للفتنةِ يجعَلُه يُصَابُ مِن رَشاشِها، ورُبَّما تَنَجَّس بذلك الرَّشاشِ فَجَرَّه إلى أعظم منه.

ولأجل كَفِّ النُّفوس عن التَّسَارع إلى الفِتَن، عُظِّم أَمْرُ الإقبالِ على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيها؛ كما في حديث مَعقِل بن يسارٍ في «صحيح مسلمٍ» أَنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**العِبَادةُ فِي الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**»؛ أي العِبادةُ حالَ الفتنة بمنزلة الهجرة إلى النَّبيِّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وإِنَّما صُيِّرتِ العبادةُ بِهذه المنزلةِ وعُظِّم أَجْرُها لأَنَّ النَّاس مطبوعون حالَ الفِتَن على التَّرَشُّح إليها، والتَّسارعِ فيها، وطَلب الاطِّلاع على أخبارها وأحوالها، ورُبَّما غَمَرهم

ذلك فيها، فَعُظِّم أَمْرُ العبادة ليكون ذلك حاملًا للنَّفس على الإقبال على التَّعبُّد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وَاعْتَبِرْ هذا في حال الخَلْق فيما يَمُرُّ من الفِتن؛ فتَرَى أَنَّ أكثرَ الخَلْق مُتَعلِّقِين بالخَلْق، وقَلَّ منهم مَنْ يتعلَّق بالخالق.

فأكثرُ النَّاس عندما تحدُث الفِتَن تراهُم يُسَوِّغون لأنفسِهم مُشاهدةَ القنوات الفاجرة بِاسْم (الاطِّلاع على الأخبار)! وتجدهم يُضَيِّعون وقتًا طويلًا في مُتابَعة الإذاعات بِاسْم (الاطِّلاع على الأخبار)! وكُلُّ هذا شُغْلٌ بالمخلوق، وانصرافٌ عن الإقبال على الخالق.

فالمُقبِل على العبادة في زمن الفتنةِ عُظِّم أَمْرُه؛ لأَنَّ أكثرَ النَّاس منصَرِفون عن الله عَزَّوَجَلَّ.

ومِن قواعد تعظيم العبادة: أَنَّ العبادة المفعولةَ في حال الغَفْلة تُعَظَّم.

ومن ذلك: ما في «صحيح البخاريِّ» مِن حديث عُبادةَ بن الصَّامِت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الحَمْدُ للهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا؛ اسْتُجِيبَ، فَإِنْ تَوَضَّأَ قُبِلَتْ صَلَاتُهُ**».

وإِنَّما عُظِّم هذا لأَنَّ النَّومَ وقتُ غَفْلةٍ.

وكثيرٌ مِن النَّاس يَتَعارَّ مِن نومه - أي يستيقظ وينتبه في أثنائه - ثُمَّ يُقَلِّبُ جانبَيْه ويرجع إلى نومِه ولا يذكرُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأَنَّ هذا وقتُ غَفْلةٍ، فلمَّا كان وقتَ غَفْلةٍ عُظِّم الأجر

فيه.

ومِثل هذا حال الفِتنة؛ فإنَّ حالَ الفِتنة حالُ غَفلةٍ عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ويُعلَم بهذا أنَّ مِن أعظم السِّلاح الَّذي يتَّخِذه المَرء عند وُرود الفِتَن: أَنْ يكون حِلْس بيته، وأَنْ يُقبِلَ على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأَنْ يشتغِلَ بما ينفعُه، سَواءً كانتْ تلك الفِتَن مِمَّا يتعلَّق بأَمْر الدِّين، أو مِمَّا يتعلَّق بِأَمْر الدُّنيا؛ فإِنَّ الفِتنةَ كالغُبارِ الَّذي يكتسح الخَلْقَ، فلا يُمَيِّز الإنسان فيه شيئًا، حَتَّى إذا انْجَلى ذلك الغُبار عَرَف الحال، كما قال الشَّاعر:

سَتَعْلَمُ إِذَا انْجَلَى الْغُبَارُ أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمَارُ

ولا يحصلُ التَّمييز إلَّا لِمَنْ رَسَخَ عِلْمُه واتَّسَع، كما قال الأوزاعيُّ: «إِنَّ الفِتنة إذا أَقبلَتْ عَلِمَها العالِمُ وخَفِيَت على الجاهلِ؛ فإذا أدبرتْ استوى النَّاس فيها».

ولكن قد يكونُ المَرء قد تَلَطَّخ بشيءٍ مِن آثارها وأحوالِها، فلا ينفعه حينئذٍ معرفته لها.

وأَمَّا العالِم: فإِنَّه يَتبَيَّن ذلك تَبَيُّنًا صحيحًا راسخًا، فيعلمُ ما يَدين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به، ويعرفُ ما يتكلَّم به، ويعرِف ما يسكُت عنه؛ طَلَبًا للنَّجاة مِن سَخَطِ الرَّحمن، لا طَلَبًا للنَّجاة مِن سَوْط السُّلطان.

فإِنَّ رُقْبَانَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ومَخافَته أَعظمُ من ملاحظة حال السَّلاطين والملوك.

وأكثر الأغمار مِن المُشتغلين بالعلم مِن المُتَشَرِّعة يَظُنُّون أَنَّ الإمساك عن الكلام في حالَ الفِتَن إِنَّما يحمِلُ عليه مُطالعةُ المُتَكَلِّم المنصوبِ للفتوى بأَمْر السُّلطان! وهذا من الجهل بالله وبأَمْره.

وإِلَّا فمَنْ عَرَفَ شِدَّة الفتنة عَرَف أَنَّ الفِتَن تَذَرُ الحَليم حَيْرانًا؛ فمُقتضى تلك الفتنة: أَنْ

يُمسِك عنها الإنسان، ويعرفُ ما يقول وما يسكت عنه.

ومَنْ صَحِب العلماءَ الكِبارَ مِن علماء هذه البلاد ورأى أحوالَهم في إِبَّان مرور تلك الفِتَن، رَأى الفَرْق بين الرَّاسخ والزَّائغ؛ فإِنَّ الرَّاسخ له حالٌ من الكمال، والزَّائغ تجده مُضطربَ النَّفس، مُتبَلْبِل الحال - أعني من المُتشَرِّعة.

وهذا أَشْبهُ بما كان يذكره ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في (منزلة السَّكينة) من «مدارج السَّالكين»، أنَّ شيخه (شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان إذا اشتدَّت عليه الأمور: قرأ آيات السَّكينة).

قال: (وسمعتُه يقول في واقعةٍ عظيمةٍ جرتْ له في مرضِه، تعجز العقول عن حملِها - مِن محاربةِ أرواحٍ شيطانيَّةٍ، ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوَّة - قال: فلمَّا اشتدَّ عليَّ الأمر، قلتُ لأقاربي ومَن حولي: اقرءوا آيات السَّكينة، قال: ثمَّ أقلعَ عنِّي ذلك الحال، وجلستُ وما بي قَلَبَةٌ).

ثمَّ قال: (وقد جَرَّبتُ أنا أيضًا قراءة هذه الآيات عند اضطرابِ القلب بما يَرِد عليه، فرأيتُ لها تأثيرًا عظيمًا في سكونِه وطمأنينتِه).

فقُوَّةُ الإيمانِ، والوثوق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكمالُ الإقبالِ عليه؛ يدفعُ هذه الفِتَن، ويُعَرِّفُ الإنسانَ بحقائقِها ومآلِها ودعواتِها.

وكم مِن إنسانٍ رَفَع بصرَه في فتنةٍ يظنُّ أَنَّها تَؤولُ إلى خيرٍ ثُمَّ تؤول بشَرٍّ عظيمٍ، كما قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «إعلام المُوقِّعين»: (ومَن تأمَّل ما جرى على الإسلام من الفتن الكِبَار والصِّغار رآها مِن إضاعةِ هذا الأصلِ وعدم الصَّبْر على منكرٍ؛ فطلب إزالتَه

فتولَّد منه ما هو أكبَرُ منه...، ولهذا لم يأذن صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في الإنكار على الأمراء باليد؛ لِمَا يترَتَّب عليه مِن وقوع ما هو أعظمُ منه).

وما مِن أحدٍ من القُرَّاء دَخَل في فتنةِ ابن الأشعث إلَّا نَدِم عليها وعَرَف وخيم أَثَرها وسوء عاقبتها، وَاطْرُد هذا الأمر في كُلِّ فتنةٍ تقومُ.

فينبغي أن يعلمَ الإنسان أَنَّ ضَرر الفِتَن على القلوب أعظم مِن ضررها على الأحوال الظَّاهرة.

فلا تَخَافَنَّ في حال فتنةٍ أَنْ يَفوتَك حَظُّك من الدُّنيا، ولكن خَفْ حال الفتنة أَنْ يفوتَك حَظُّك من الدِّين.

وقد مضَتْ بِهذه البلاد فِتَنٌ اتَّسع بعض النَّاس في الكلام فيها ووقع فيما لا ينبغي، فصار مآل بعض منهم بعد ذلك ما قَرُب من الانحلال من الدِّيانة؛ لأَنَّ تَوَسُّعَهم في القَوْل جَرَّهم إلى الوقوعِ في العلماء والتَّعدِّي عليهم.

ولُحومُ العلماء مسمومةٌ، كما قال ابن عساكرٍ في مُقَدِّمة كتابه المعروف «تبْيين كذب المُفتَري فيما نُسِب إلى الإمام أبي الحَسن الأَشعريِّ»: (لحوم العلماء مسمومةٌ، وعادة الله في هَتْك أستار مُنْتَقِصيهم معلومةٌ، ومَنْ أطْلَق لسانه في العلماء بالثَّلب بَلاه الله قبل موتِه بموت القلب).

فينبغي أَنْ يحذر الإنسانُ من هذا المآل؛ فإِنَّ شواهدَه في حالِ النَّاس اليوم كثيرةٌ.

وكم مِن إنسانٍ كان يُشارُ إليه بالدِّيانة فيما مَضى في تلك الفِتَن، ثُمَّ صار قَومٌ منهم خِلْوًا من الدِّيانة، وبعضُهم رُبَّما قَرُب من الوقوع في الضَّلال والرِّدَّة – نسأل الله العافية.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٨- أَخْبَرَنَا أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ بِشْرَانَ الوَاعِظُ الزَّاهِدُ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ الآجُرِيُّ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى الحُلْوَانِيُّ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَكُونُ فِتْنَةٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ يَسْتَشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْ لَهُ، وَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ**».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

إسناد هذا الحديث صحيحٌ، وهو في «الصَّحيحين».

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه: («**مَنْ يَسْتَشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْ لَهُ**») شاهدُ صِدْقٍ لِمَا سَلف: أَنَّ مَنْ تَطَلَّع إلى الفتنة اجْتَرَّتْه إليها.

واللَّائق بالإنسان: أَنْ يطلب ما يلجأُ فيه ويعوذُ به لِيَتَوَقَّى من شَرِّ الفِتَن.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٩- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ رِزْقَوَيْهِ، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنْصُورٍ الرَّمَادِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «لَمَّا وَقَعَتْ فِتْنَةُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَجُلٌ مِنَ العَرَبِ لِأَهْلِهِ: إِنِّي قَدْ جُنِنْتُ فَقَيِّدُونِي، فَقَيَّدُوهُ، فَلَمَّا زَالَتِ الفِتْنَةُ قَالَ لَهُمْ: حُلُّوا قَيْدِي، الحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي مِنَ الجُنُونِ وَعَافَانِي مِنْ فِتْنَةِ عُثْمَانَ».

٣٠- أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ البَزَّازُ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الهَرَوِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ السَّمَرْقَنْدِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ مُعَاذٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: «إِلَهِي؛ أَدْعُوكَ بِلِسَانِ نِعَمِكَ فَأَجِبْنِي بِلِسَانِ كَرَمِكَ، إِلَهِي؛ إِذَا شَهِدَ لِي الإِيمَانُ بِتَوْحِيدِكَ، وَنَطَقَ لِسَانِي بِتَحْمِيدِكَ، وَدَلَّنِي القُرْآنُ عَلَى فَوَاضِلِ جُودِكَ، وَيَشْفَعُ لِي مُحَمَّدٌ خَيْرُ عَبِيدِكَ؛ فَكَيْفَ لَا يَبْتَهِجُ رَجَائِي بِحُسْنِ مَوْعُودِكَ؟!».

٣١- وَكَانَ يَحْيَى كَثِيرًا يَطْلُبُ الخَلْوَةَ وَالتَّفَرُّدَ مِنَ النَّاسِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَخُوهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ لَهُ: أَخِي؛ كَمْ تَتْرُكُ مِنَ النَّاسِ؟ إِنْ كُنْتَ مِنَ النَّاسِ فَلَا بُدَّ مِنَ النَّاسِ، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِ يَحْيَى ثُمَّ قَالَ: «إِنْ كُنْتُ مِنَ النَّاسِ فَلَا بُدَّ مِنَ اللهِ»، ثُمَّ أَنْشَأَ يَحْيَى يَقُولُ:

دَعُوا بِاللهِ تَعْذَالِي[1] ... فَمَا أَنْ تَفْهَمُوا حَالِي

دَعُونِي وَاخْرُجُوا عَنِّي ... رِجَالَ الْقِيلِ وَالْقَالِ

---

(١) كُلُّ مَصدرٍ على هذا البناء فهو على زِنَة (تَفْعال)، مثل (تَكرار) و(تَعْذال)، إلَّا (تِلقاء)، و(تِبيان) اتِّفاقًا، و(تِذْكار) على خلافٍ فيها.

وذُكِرت كلماتٌ أَضْعَف من ذلك؛ فالأصل في هذا البناء على المصدر: أَنْ يكون بالفتح على زِنة (تفعال).

فَيَـا شَـوْقِي إِلَـى شَـخْصٍ إِلَـى الـرَّحْمَنِ مَيَّـالِ
وَفِـي سِـرٍّ مِـنَ الْأَسْـرَ ارِ حَطَّـاطٍ وَرَحَّـالِ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قول يحيى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: («إِنْ كُنْتُ مِنَ النَّاسِ فَلَا بُدَّ مِنَ اللهِ»)؛ يعني أَنَّ الإنسان مُفتقِرٌ إلى رَبِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا غِنَى له عنه؛ ففي نَفْسه ضرورةٌ لا تُسَدُّ إلَّا بالإقبال على الله؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر].

ويُشبِه هذا المعنى قولُ ابن عونٍ: «ذِكْر الله دواءٌ، وذِكْر النَّاس داءٌ».

فالمَرْء المُقبِل على ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ يُداوي بذلك فساد قلبَه. والمُقبِل على ذِكْر النَّاس يُفسِد بذلك قلبَه.



قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

٣٢- وَأَنْشَدَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ:

مَـنْ حَمِـدَ النَّـاسَ وَلَـمْ يَـبْلُهُمْ ... ثُـمَّ بَلَاهُـمْ ذَمَّ مَـنْ يَحْمَـدُ

وَصَـارَ بِالْوَحْـدَةِ مُسْتَأْنِسًـا ... يُوحِشُـهُ الْأَقْـرَبُ وَالْأَبْعَـدُ

٣٣- وَأَنْشَدَ الحُسَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ:

طِـبْ عَـنِ الْأُمَّـةِ نَفْسًـا ... وَارْضَ بِالْوَحْـدَةِ أُنْسًـا

مَـا رَأَيْنَـا أَحَـدًا يَسْـوَى ... عَلَـى الْخِبْـرَةِ فَلْسًـا

٣٤- وَأَنْشَدَ أَبُو بَكْرِ بْنُ مُسْلِمٍ:

تَوَحَّشْ مِنَ الْإِخْوَانِ لَا تَبْغِ مُؤْنِسًا ... وَلَا تَتَّخِذْ خِلًّا وَلَا تَبْغِ صَاحِبًا

وَكُنْ سَامِرِيَّ الْفِعْلِ مِنْ نَسْلِ آدَمٍ ... وَكُنْ أَوْحَدِيًّا مَا حَيِيتَ مُجَانِبًا

فَقَدْ فَسَدَ الْإِخْوَانُ وَالْحُبُّ وَالْهَوَى ... فَلَسْتَ تَرَى إِلَّا صَدُوقًا وَكَاذِبًا

فَـوَاللهِ لَـوْلَا أَنْ يُقَـالَ مُدَهْـدَهٌ ... وَتُنْكَرُ أَحْوَالِي لَقَدْ صِرْتُ رَاهِبًا

قَال الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قوله: (وَكُنْ سَامِرِيَّ الْفِعْلِ) يُشير إلى السَّامري الَّذي من بني إسرائيل؛ الَّذي عُوقِبَ بنُفرَتِه من النَّاس وهَرَبِه منهم وأَنْ يقول: (لا مِساسَ) لَمَّا صَبَّ الله عَزَّوَجَلَّ عليه العذاب.

فهو يُشير إلى أَنْ يكون حالُه كحال السَّامريِّ مِن مُباعدة النَّاس وعدم مُخالطتِهم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ الاشْتِغَالِ بِمَا يُغْنِي وَتَرْكِ الخَوْضِ فِيمَا لَا يَعْنِي

٣٥- أَخْبَرَنَا أَبُوعَلِيٍّ الحَسَنُ بْنُ شِهَابِ بْنِ الحَسَنِ العُكْبَرِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ عُبَيْدُاللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حِمْدَانَ بْنِ بَطَّةَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الحُلْوَانِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو يُوسُفَ يَعْقُوبُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ دِينَارٍ البَغْدَادِيُّ، حَدَّثَنَا يزِيدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ، حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ بْنُ الوَلِيدِ، عَنِ الأَوْزَاعِيِّ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ: تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا الحديثُ حديثٌ ضعيفٌ، رُوِي من وجوهٍ لا تثبت ولا يحصُل باجتماعها قُوَّةٌ له، وقد ضَعَّفه كِبار الحُفَّاظ كأحمدَ، وأبي داودَ، وغيرهما؛ وقالوا: (لا يَصِحُّ إِلَّا مُرسلًا عن عليِّ بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى).

وسَبَقَ أَنْ ذكرْنا لكم: أَنَّ معناه ثابتٌ في الشَّريعة، **وأَنَّ أصول (ما لا يعني) ترجع إلى أربعةِ أشياءَ**:

- ✓ **أَوَّلها**: المُحَرَّمات.
- ✓ **وثانيها**: المَكروهات.

- **وثالثها**: المُشتبِهات في حَقِّ مَنْ لا يَتَبَيَّنها.
- **ورابعها**: فضول المُباحات.

فَكُلُّ فردٍ يرجع إلى أحد هذه الأصول الأربعة هو مِمَّا (لا يعني)، وينبغي أَنْ يتركَه الإنسان.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

٣٦- وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ العَبَّاسِ الوَرَّاقُ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُلَاعِبٍ، حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ عَبْدِ الحَمِيدِ، حَدَّثَنَا عِصَامُ بْنُ طُلَيْقٍ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَكْثَرُ النَّاسِ ذُنُوبًا: أَكْثَرُهُمْ كَلَامًا فِيمَا لَا يَعْنِيهِ**».

٣٧- أَخْبَرَنَا أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ العَطَّارُ، أَخْبَرَنَا ابْنُ الصَّوَّافِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا المَسْعُودِيُّ، عَنْ عَوْنٍ: أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: قَدْ أَوْجَبْتُ، قَدْ بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا عَمِلْتُ كَبِيرَةً؛ فَأُرِيَتْ فِي المَنَامِ فَقِيلَ لَهَا: «يَا فُلَانَةُ؛ أَنْتِ القَائِلَةُ كَذَا وَكَذَا! وَأَنْتِ تَنْطِقِينَ فِيمَا لَا يَعْنِيكِ وَتَمْنَعِينَ مَا لَا يَضُرُّكِ».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

إسناد هذين الحديث ضعيفٌ.

وما ذَهَبَ إليه ناشر الكتاب مِنْ جَعْل إسناد الحديث الثَّاني (مِمَّا لا بأس به) يمكن أن يكون لو لم يكن بِهذا المتن؛ فإنَّ مثلَ هذا المتن لا يحتمِلُ هذا الإسناد؛ ففيه تَعَرُّضٌ لجَناب امرأةٍ معدودةٍ في أصحاب النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأَنَّها أخبَرت عن نفسها بـ (أَنَّها قد أوجبتْ، وقد بَايَعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما عَمِلَتْ كبيرةً).

ومعنى (قد أَوْجَبَت): أي قد استحَقَّت الجَنَّةَ؛ ترجو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذلك، ثُمَّ رُئِيت على خلاف هذا.

فمثلُ هذا المتن لا يُقبَل بمثل هذا الإسناد.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

٣٨- أَخْبَرَنَا أَبُو الحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الفَضْلِ القَطَّانُ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَمْرٍو عُثْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ السَّمَّاكُ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَبُو الحَسَنِ الوَاسِطِيُّ، حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ نُصَيْرٍ، قَالَ: قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «خَتَمَ المَلَكُ الخَيْرَ فِي ثَلَاثٍ: فِي المَنْطِقِ، وَالصَّمْتِ، وَالنَّظَرِ؛ فَمَا كَانَ مِنْ مَنْطِقٍ فِي غَيْرِ ذِكْرٍ فَهُوَ لَغْوٌ، وَمَا كَانَ مِنْ صَمْتٍ فِي غَيْرِ تَفَكُّرٍ فَهُوَ سَهْوٌ، وَمَا كَانَ مِنْ مَنْظَرٍ فِي غَيْرِ عِبْرَةٍ فَهُوَ لَهْوٌ».

٣٩- أَخْبَرَنَا أَبُو الفَتْحِ هِلَالُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ الحَفَّارُ، أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا، حَدَّثَنَا الأَصْمَعِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، قَالَ: قَالَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ! اطْلُبْ مَا يَعْنِيكَ بِتَرْكِ مَا لَا يَعْنِيكَ؛ فَإِنَّ فِي تَرْكِ مَا لَا يَعْنِيكَ دَرَكًا لِمَا يَعْنِيكَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى مَا قَدَّمْتَ، وَلَسْتَ تَقْدَمُ عَلَى مَا أَخَّرْتَ؛ فَآثِرْ مَا تَلْقَاهُ غَدًا عَلَى مَا لَا تَرَاهُ أَبَدًا».

٤٠- وَفِي مَعْنَاهُ:

اغْتَنِمْ فِي الْفَرَاغِ فَضْلَ رُكُوعٍ ... فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَغْتَهْ

كَمْ صَحِيحٍ رَأَيْتَ مِنْ غَيْرِ سُقْمٍ ... ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَهْ[1]

٤١- وَأَنْشَدَ آخَرُ:

اعْمَلْ وَأَنْتَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى حَذَرٍ ... وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَبْعُوثُ

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا قَدَّمْتَ مِنْ عَمَلٍ ... يُحْصَى عَلَيْكَ وَمَا جَمَّعْتَ مَوْرُوثُ

---

(١) هذان البيتان للبخاريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى؛ قال ابن حجرٍ: (وقد اتَّفق وقوع ذلك له؛ لأنَّه مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَلْتَةً من غير سابقِ سُقْمٍ).

٤٢- وَأَنْشَدَ آخَرُ:

اعْمَـــــلْ لِــــئَلَّا تَسْـــــقَمْ فَعُمْــــرُكَ الْيَـــوْمَ مَغْــــنَمْ

فَجُــــدْ بِــــهِ لِإِلَــــهٍ وَسَــــيِّدٍ لَا يُطْعَـــــمْ[1]

وَإِنْ رَأَيْــــتَ فُتُـــــورًا فَقُـــلْ لَـــهُ فَسَــتَنْعَمْ

بِقُــــرْبِ رَبٍّ جَلِيـــــلٍ وَمَـــنْ خَـــدَمْ فَسَـــيُخْدَمْ

وَاعْلَـــمْ يَقِينًــــا بِفَهْـــمٍ فَأَنْـــتَ عِنْــدِي مُقَــدَّمْ

مَـــنْ لَـــمْ يُقَـــدِّمْ فِعَـــالًا فَسَـــوْفَ يَوْمًـــا يَنْـــدَمْ

٤٣- أَخْبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ حَمْزَةُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَاهِرٍ الدَّقَّاقُ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ بَهْتَهْ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ الهَيْثَمِ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الرَّبِيعِ، قَالَ: قَالَ أَعْرَابِيٌّ: «طَلَبْتُ الرَّاحَةَ لِنَفْسِي، فَلَمْ أَرَ شَيْئًا أَرْوَحَ لَهَا مِنْ تَرْكِ مَا لَا يَعْنِيهَا».

٤٤- وَكَانَ الحَسَنُ يَقُولُ: «مِنْ عَلَامَةِ إِعْرَاضِ اللهِ عَنْ عَبْدِهِ: أَنْ يَجْعَلَ شُغْلَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ».

٤٥- وَقَالَ غَيْرُهُ: «هَلَاكُ النَّاسِ فِي خَصْلَتَيْنِ: فُضُولِ مَالٍ، وَفُضُولِ مَقَالٍ».

٤٦- وَقَالَ شُمَيْطُ بْنُ عَجْلَانَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى وَسَمَ الدُّنْيَا بِالوَحْشَةِ؛ لِيَكُونَ أُنْسُ المُطِيعِين بِهِ».

آخِرِ الرِّسَالَة.

---

(١) (لا يُطْعَم): هذه أحد القراءة الرَّاجحة من أربعةِ وجوهٍ مبنًى ومعنًى؛ فالأفضل: وَصْف الله بذلك، فيُقال في حقِّه: (لَا يُطْعَمْ)، وليس (لا يَطْعَم).

والحَمْد لله وصلواتُه على سيِّدنَا مُحَمَّدٍ وَآله.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

وهذا آخر التَّقرير على هذه الرِّسالة.

والله أعلم.

وصلَّى الله وسَلَّم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

تَمَّ إقراء الكتاب فِي مَجلسٍ وَاحِدٍ
بعد عصر الأحد الثَّامن عشر من شهر شعبان
سَنَةَ ثلاثين بَعْدَ الأَرْبَعِمائَةِ وَالأَلْفِ
فِي جامع الإيمان بحي النَّسيم بِمَدِينَةِ الرِّياض



فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد